

## الشكر على اليكْر

"الذي هو صورة الله غير المنظور ويكْر كلّ خليفة"

ما أجمل هذه العبارات، التي صارت بالواقع تسبحةً من تسابيح الكنيسة الأولى! يحارُّ بولس في إظهار يسوع وفي التمحور بكلّ شيء حوله، فيعطيه ألقاباً ودوراً مميّزاً جداً ومركزيّاً. وعلى جمال هذه العبارة وروعيتها فإنّها شكّلتْ لكثيرين حجر عثرة. لقد اعتمد آريوس، الذي أنكر ألوهيّة المسيح، عبارة "يكْر كلّ خليفة" ليبرهن ويعلم أنّ يسوع هو مخلوق، وإنّ كان لدى الله هو أكرم الخلائق! بينما نجد بالمقابل أنّ كلّ آيات المقطع هنا تدور حول ألوهيّة يسوع المسيح وتفوّقه على كلّ الخليقة في البداية والكرامة. وخاصّة، أنّ بولس يواجه هنا بعض الهرطقة الذين كانوا يعلّمون عبادة الملائكة، فيوضح هنا أنّ يسوع هو فوق الملائكة بمقدار ما يفوق اللامخلوق على المخلوق في الزمن والكرامة.

يستخدم بولس الرسول، وهو يهوديّ يونانيّ، كلمة "يكْر" (πρωτότοκος) من العصر الهلينستيّ اليهوديّ. وترد هذه العبارة في رسائله عدّة مرّات، كما ترد هنا بالحرف وبالمعنى أربع مرّات. إنّ التأمّل بهذه العبارة سيجعلنا نتخشّع أمام سرّ التدبير الإلهيّ المحبّ للبشر.

يسمّي بولسُ الربَّ يسوعَ بكراً: "وأيضاً متى أدخل اليكْر (يسوع) إلى العالم يقول ولتسجدْ له كلُّ ملائكة الله" (عب ١، ٦). ويبرهن هنا أنّ يسوع يفوق حتّى العالم غير المنظور، عالم الملائكة، فهذه كمخلوقات تسجد له كخالق. وأيضاً في الرسالة إلى كولوسي (١، ١٨) يسمّي بولس يسوع "البكر من بين الأموات" (١، ١٨)، وفي رسالته إلى رومية (٨، ٢٩) يسمّيه "بكراً بين إخوة كثيرين (البشر)". وهذه كلّها عبارات تتكلّم عن مكانة يسوع ودوره، وليس عن ولادته أو لا سمح الله عن خلقه في الزمن. فهو أوّل مَنْ قام من بين الأموات الذي دعانا إخوة فصار الأخ البكر.

وهنا في الرسالة وفي هذه الأسطر القليلة يتكلّم عن تفوّق يسوع على الخليقة كلّها، فيلقّبها "بكر كلّ خليفة"، لكنّه لا يعني أنّه أوّل المخلوقات، إذ يتابع على الفور ويقول: "لأنّه به خُلِقَ الكلُّ، ما في

السموات وما على الأرض، ما يرى وما لا يرى... به وإليه خُلق الجميع"، وكلّ هذه الصفات ليسوع كخالق وليس كمخلوق تفسّرُها آية الرؤيا عنه أنّه "الألف والياء، البداية والنهاية".

ثمّ يقول هنا "وهو قبل الجميع وبه يثبت الجميع". والواضح أنّه في عبارة "قبل" لا يعني بدءاً زمنياً لأنّه يستخدم فعل هو في الحاضر والدائم وليس بالماضي، إذ لم يقل "كان" (خُلق) قبل الجميع بل "هو" قبل الجميع أي كرامة هو فوق الجميع دائماً.

إنّه "المبدأ (ἀρχή) من بين الأموات"، وهي عبارة تشابه عبارته في كولوسي "البكر من بين الأموات". إنّهُ بكرُ الخليقة، نعم ولكن الخليقة الجديدة التي من بعد القيامة. إنّهُ الإنسان الأوّل الذي ألّهَ طبيعتنا البشريّة وأخذها إلى السماء فوق الموت في حياة أبدية خالدة. إنّهُ الكلمة غير المخلوق الذي قبل الدهور المساوي للآب في الأزليّة، لكنّه صار "بكرًا" بين إخوة كثيرين من طبيعتنا البشريّة للخليقة الجديدة التي ستلبس طبيعتنا في عدم البلى.

وأخيراً يقول "لكي يكون هو المتقدّم في كلّ شيء"، والمعني هنا أنّه جاء إلينا ليتقدّمنا كقائد، لا كمَن يشير لنا بالعمل بل كمَن يعمل أولاً ما علينا أن نعمله بعده. لقد حمل عاهاتنا وصلب لأجل معاصينا وصار بكرًا من بين الأموات يتقدّمنا في كلّ شيء.

أكثر الكلمات قوّة ووضوحاً التي تشرح كلمة "بكر" هي تعابير بولس الشكريّة والحارّة: "يا إخوة نشكر الله الآب الذي جدّدنا مؤهلاً إيانا للشركة في إرث القديسين". هذا الشكر يرفعه بولس لله الآب الذي أرسل لنا ابنه الوحيد و"افتتح" لنا حالة وحيّة جديدة، وصار بكرها؛ إنّها حالة الإنسان بعد القيامة وحالة الخليقة الجديدة، بحقّ إذن يسمّى يسوعُ "بكرَ كلّ خليقة (جديدة)".

"لكي يتقدّمنا في كلّ شيء" ليس زمنياً بل كرامةً، إنّهُ الابن الأكبر لله الآب، ونحن إخوته؛ إنّهُ البكر الإنسان في عالم عدم البلى هو يتقدّمنا ونحن نتبعه، فهو بكر وهو عربون الحقيقة لنا. "البكر" هنا لا تعني أنّ يسوع أوّل مخلوق (فاتح رحم) بل هو أوّل الخليقة الجديدة الذي جعل طبيعتنا في حياة لا تموت. إنّهُ الابن الأكبر المتقدّم الذي جعلنا إخوته وأبناءً به لله الآب.

لهذا جاء يسوع على الأرض: "لكي يعرفوك أنّك أنت الإله الحقيقيّ (الآب) ويسوع المسيح الذي أرسلته" (يوحنا ١٧، ٣). ولهذا عندما سأله تلاميذه: "علّمنا أن نصلي"، علّمهم أن ينادوا: "أبانا الذي في السموات". يسوع صار بكرًا عندما وهبنا نعمة التبنّي.

فشكراً لله الآب الذي تبنانا بيسوع المسيح. وليس لهذا الشرف وحسب بل لأنه بذلك: "جددنا" وأدخلنا في حظّ القديسين في النور". "الذي أنقذنا من سلطان الظلمة ونقلنا إلى ملكوت ابن محبته يسوع".

الشكر على البكر واجبٌ، وتسبحة تخرج من قلب كل إنسان كان يعرف أنه "من التراب وإلى التراب يعود" واكتشف اليوم بيسوع البكر من بين الأموات أنه ابنٌ لله بالتبني، تراب يسير إلى التآله!  
الشكر على البكر، الذي فتح لنا حياة الخليقة الجديدة، صلاة تخرج من قلب كل منا وكل خليقة، ولكنّها بالوقت ذاته لا تتماشى مع انتمائنا إلى عالم الظلمة، بل تقوم على نقلتنا من عالم الظلمة إلى ميراث القديسين في النور.

التسبيح لله الآب والحمد والشكر على البكر الذي أرسله. والشكر على نعمته التي نتمسك بها فنحيا الحياة الجديدة التي وهبت لنا بالبكر إمكانيّة، وتحقق بحريتنا وبمؤازرة النعمة.  
"لنشكرنّ الربّ"، و"لنضع قلوبنا فوق": كلمات متلاصقة في الليتورجيا تجعل الشكر يرفعنا في الحياة عن الدنيويّات إلى الروحيّات، وتجعل هذه الخبرة قوّة متجدّدة للشكران. لنشكرنّ الربّ على البكر، هو يتقدّمنا ونحن نتبعه، نموت معه لنحيا به، آمين.